الإيـــقـاع والتواصـل

بقلم مصطفى حركات

جامعة الجزائر ـ بوزريعة

1. مفهوم الإيقاع

قد عرفنا الإيقاع في أبحاثنا كما يلي: **الإيقاع هو اقتران حَدَث متكرر بالزمن.**

- الحدث قد يكون دقات القلب، أو خطى العداء، أو قطرات من الماء تتساقط، أو نقرات على طبل، أو حروف اللغة عند النطق بالكلام.

- التكرار يقع في الزمن.

- الزمن الإيقاعي هو زمن خاص يكون:زمنا فيزيائيا أو ميدانا مجردا لا تربطه بالزمن أي علاقة ظاهرة.

- الحدث بتكراره يقسم الزمن إلى مجموعة من الأزمنة : أ ، ب، جـــ، د، هـــ، و، ز ... تكوّن سلسلة إيقاعية تكتب على الشكل: ق = {ا ب ت ث ...} والسلسلة الإيقاعية قد تكون بيتا أو شطرا من الشعر تجزئه السواكن والمتحركات إلى وزن وقد تكون نصا نثربا يحدد فيه النحو والصرف والأصوات تقسيما لغويا.

- عناصر السلسلة الإيقاعية هي الوحدات الإيقاعية وتكون في غالب الأحيان ثنائية، متضادة. فالمقطع القصير يقابل المقطع الطويل، والمقطع البسيط يقابل المقطع المنبور، والساكن يقابل المتحرك، والنقرة الثقيلة تقابل النقرة الخفيفة في الإيقاع الموسيقي.

- الشعر يستعمل عبر اللغة نظامين من الوحدات لتحديد إيقاعه: نظام الساكن والمتحرك الذي اكتشفه العرب ونظام المقاطع اللغوية المستعمل في الشعر اليوناني

- المقطع القصير = متحرك، أو بالرموز: ق = 1

- المقطع الطويل = متحرك + ساكن، أو بالرموز: ط = 01

2. إيقاع التواصل

الإيقاع أصناف. من أبرزها إيقاع الظواهر الطبيعية مثل: إيقاع القلب، إيقاع التنفس الخاص بحركة الرئتين، الإيقاع البيولوجي للحيوانات والنباتات، إيقاع الفصول، إيقاع الليل والنهار، إيقاع الأمطار أو إيقاع الطقس عامة.

ومن أهم الأصناف ما سميناه بإيقاع التواصل وهو رسالة يبعثها مرسل إلى متلق. المرسل هو المتكلم أو الشاعر أو المغني أو العازف. والمتلقي هو السامع أو القارئ.

شكل الرسالة صوتي وجهاز التوقيع هو إما جزء من الجسم كجهاز النطق أو اليدين والرجلين أو آلة يتحكم فيها الإنسان. هذا الإيقاع ناتج عن فعل إيرادي وهو يملك وظيفة جمالية ترافق الوظيفة التبليغية.

إيقاع التواصل يشمل اللغة والشعر والموسيقى.

3. إيقاع اللغة

إيقاع اللغة يكون إيقاعا عاما للغة يخص كل نصوصها. فللعربية إيقاع غير إيقاع الإنجليزية أو الألمانية أو الفرنسية. وللفصحى إيقاع يختلف عن إيقاع عامياتها. وقد يكون إيقاعا خاصا بالنصوص وأنواعها.

إيقاع اللغة العام ينطلق من مستوى الأصوات. فالتلفظ اللغوي يحدُث ضمن خطية الزمن. بصفة مرتبة كل صوت يتبع الأخر. وهذا التعاقب للأصوات يكوّن في حد ذاته تقطيعا للزمن. عندما ننطق بالجملة: {الحمد لله} فإننا نحدد سلسلة متجاورة من الحروف والحركات هي السلسلة الإيقاعية المرفقة بالجملة السابقة. هذه السلسلة مختلفة الوحدات. إذا كان الزمن هو الزمن الفيزيائي، فالتلفظ يختلف من شخص لآخر ومن مقام لمقام، كما أنه يختلف حسب طبيعة الحروف. فاللام حرف تسريبي مستمر يختلف زمان النطق به عندما يكون متحركا أو ساكنا أو مدغما، كما أن هذا الزمان للنطق يختلف عن زمان نطق الدال الذي يختلف بدوره عن زمان نطق الحركات، والحركات تختلف فيما بينها بحسب الطبيعة والموقع الخ.....نحن إذن أمام سلسلة إيقاعية أزمنتها مختلفة بدون أي علاقة ظاهرة بين هذه الأزمنة.

ولكننا إذا أدمجنا جملتنا السابقة في البيت الآتي:

الحمد لله الذي علمنا من العلوم ما به كلفنا

هذا التنظير يقتضي علاقة جديدة بين الأزمنة، وتصنيفا لها، وتغييرا لمفهوم الزمن، وانتقالا من واقع فيزيائي إلى واقع شعري.

والإيقاع اللغوي كما يفهمه اللغويون اليوم هو الإيقاع المبني ع لى المقاطع اللغوية أو السواكن والمتحركات.وعناصر النغم الخاصة بكل لغة.

4. إيصال الإيقاع

المتكلم يوصل خلال النطق مدلولات اللغة وإيقاعها. وهذا التواصل الإيقاعي يبرز عند إلقاء الشعر.

فإلقاء الشعر يتأرجح بين قطبين : قطب دلالي وظيفته إبراز المعنى، وقطب إيقاعي يهتم بإبراز الوزن. وقد أثبتنا أن إيقاع الشعر ثنائي فهو إيقاع لغة وإيقاع وزن.

والإلقاء اللغوي في العربية يهتم في الدرجة الأولى بالتمييز بين الممدود وغير الممدود وتوضيح الوحدات الدالة التي تأخذ جزءا من معناها من هذا المد الوظيفي. كما أن هذا الإلقاء يبرز حدود الكلمات والتراكيب والجمل وذلك تبعا لوظيفة تحديدية تبرز مكونات اللغة.

وقد يكون هذا الإلقاء جماليا انطباعيا يهتم ببلاغة اللغة وشاعريتها.

أما الإلقاء الإيقاعي فإنه لا يملك معنى يوصله فهو إذن جمالي بحت، ومهمته إيصال الحس الإيقاعي. وسنسمي إنشادا هذا الإلقاء الإيقاعي الذي يبرز الوزن.

الشاعر المطبوع عندما يؤلف الشعر لا يأخذ قلما ويخط مع كلماته سلاسل السواكن والمتحركات المرفقة بها، مقارنا هذه السلاسل بتفاعيل البحر الذي اختاره. فهو يملك إنشاده الداخلي الخاص بكل بحر، بل وقل لكل ضرب، وهذا الإنشاد هو الذي يجعله يكتب الشعر الموزون، فيزاحف حيث يلزم الزحاف، ويتجنب الزحاف في الأماكن التي يمنع فيها.

ولكن الشعر تواصل والإيقاع جزء من هذا التواصل، ولو لم يكن هذا التواصل لما كان الوزن. ويحكي لنا المؤرخون اليونانيون أن المشاهدين في المسرح العتيق كانوا يغضبون على الممثل الذي يكسر الوزن أو يخفي الإلقاء الإيقاعي.

وإذا افترضنا أن الوزن قطب والجملة قطب آخر، فإن القراءات الشعرية تتأرجح بين هذين القطبين: وهذا التأرجح يختلف من شخص لآخر، ومن بيت لآخر. فنادرا ما ترى شاعرا يهتم طوال إلقاء قصيدته بالمعنى وحده، فكثيرا ما يطغى عليه الوزن ويدفعه إلى قراءات إيقاعية. والعكس صحيح .

وفي الحقيقة فإن الشعر كالقطعة الموسيقية، من جهة لدينا اللغة التي هي بمثابة اللحن الذي يؤديه الصوت وبعض الآلات، وهناك الإيقاع الذي يرافق اللحن وتؤديه آلات خاصة كالطبل والطار والباتري... والإيقاع واللحن، وإن كانا متكاملين فهما منفصلان، لا يمزجان الوقف الذي يخص كل واحد منهما، ولا يتحدان حتما في أزمنة الخفة والثقل.

5. دلالات الإيقاع

خلال الثورة الجزائرية كان المستعمرون يكررون في مظاهراتهم الشعار (جزائر فرنسية) أو باللغة الأجنبية : Algérie française

ولو حللنا تأدية الشعار لرأينا أنها مكونة من جزأين كالآتي:

خفيف خفيف ثقيل ثقيل ثقيل

أو بالمقاطع: ق ق ط ط ط

أو بالتفاعيل: فعَلن فعْلن

وهو من وزن المتدارك

وكان الجزائريون يجيبون المعمرين بالشعار (تحيى الجزائر)

وذلك حسب الإيقاع

ثقيل ثقيل	خفيف خفيف ثقيل
أو ط ط	ق ق ط
أي فعْلن	فعَلن

وهو مقلوب إيقاع المعمرين وكأنهم يذلك يعنون العكس الدلالي للأطروحات الفرنسية...

وبما أن التعبير كان يأتي أحيانا بالإيقاع وحده دون الكلام. وذلك بواسطة منبهات السيارة أو القرع على الأواني فإن هذا الإيقاع اكتسى دلالة كافية.

والعبرة من هذا كله هي أن الإيقاع وإن لم يدخل في إطار الثنائية دال ممدلول فهو لا يخلو من معان...